مقدمة

يبدأ التاريخ المملوكى باعتلاء الملكة شجر الدر عرش مصر بعد وفاة زوجها السلطان الصالح نجم الدين ايوب عام ٦٤٨هـ /١٢٥٠م أثناء حربه ضد الصليبين فى الحملة الصليبية السابعة على دمياط ، وهنا برزت القوة العسكرية للمماليك ، ومنذ ذلك الوقت تحمل المماليك مهمة حماية العالم الاسلامى من الخطر الصليبى والمغولى وقراصنة الفرنجة فى البحر المتوسط ، و بعد فترة انشئوا دولة متسعة شملت مصر والشام والحجاز وامتدت حدودها حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً وحتى اليمن وحضرموت والنوبة جنوباً ومن بلاد برقة غرباً وعلى امتداد شاطىء البحر المتوسط حتى الساحل الشامى وبذلك بلغت الدولة المملوكية أوج ازدهارها وقوتها السياسية والعسكرية وأصبحت دولة مهابة ولها وزن فى عالم العصور الوسطى آنذاك ، كما ساهمت بدور فعال وقوى فى السيطرة على تجارة البحر المتوسط والأحمر وتجولت السفن المملوكية شرقاَ وغرباً مما جعل مصر محط أنظار العالم فتوافدت عليها جاليات أجنبية من مختلف الأجناس والديانات سواء كانوا أحرار أتوا للتجارة أو الزيارة أو كانوا عبيداَ وأسرى الحروب ، ورغم أن الجاليات الأجنبية كانت موجودة فى المجتمع المصرى قبل العصر المملوكى بأعداد وفيرة ولكنها زادت من حيث العدد والجنسية نظرا لظروف وعوامل متعددة ، منها ما يتعلق بالظروف الداخلية للدولة ، وحسن معاملة السلطات للأجانب الوافدين، واستقرار الأمن الداخلى ، والمميزات التى تمتعت بها المدن المصرية وسيطرتها على طرق التجارة فى الشرق بالإضافة إلى عوامل خارجية تمثلت فى طبيعة العلاقات بين

القوى السياسية المعاصرة ، واضطراب الأحوال فى الشرق والغرب نتيجة للحروب والمعارك الضارية وتوسعات بعض الدول الكبرى ، مما أدى إلى تعطل وتدهور الطرق القديمة ، وكذلك ضعف موقف البابوية وفشلها فى السيطرة على أوربا ، وعوامل اجتماعية قوية ساهمت فى وفود العديد من الأجانب إلى مصر بأعداد وفيرة وجنسيات مختلفة فوجدوا فى مصر الملاذ والملجأ الآمن ، وقد تمتع هؤلاء الأجانب الأحرار بقسط وافر من الحرية والأمان وسمحت لهم السلطات المملوكية بالإقامة فى فنادق خاصة فى المدن الساحلية ولكن وفقاً لشروط وقيود معينة أما الآخرون فقد عَمِلوا بحرف ومهن مختلفة ولكن لم يبق الوضع كما كان ، ففى نهاية العصر المملوكى أخفق سلاطين المماليك فى السيطرة على الدولة كما أساوا معاملة الأجانب ولم يفلحوا فى حمايتها من الخارج وتعرضت للخطر البرتغالى الذى أفقدها التحكم على التجارة بين الشرق والغرب والتى كانت مصدر قوتها ثم الخطر العثمانى الذى استولى عليها فتحولت مصر إلى ولاية عثمانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»

صدق الله العظيم
سورة الأعراف – الآية ٨٩

مقدمة البحث

تحظى الدراسات الحضارية الآن باهتمام كبير نظرًا لما تحتويه من تنوع في القضايا والأفكار المتعددة، وتهدف هذه الدراسة إلى كشف السمات المختلفة للدولة المملوكية التي استمر حكمها من عام ٦٤٨هـ إلى عام ٩٢٣هـ/١٢٥٠م – ١٥١٧م حيث لعبت دورا عظيما في النهوض بأعباء البلاد واستطاعت حماية العالم الإسلامي والمنطقة العربية من أخطار متعددة، ولذا فقد تمتعت تلك الدولة بنشاط خارجي على نطاق واسع مع الدول الإسلامية ومع الدول الأجنبية على حد سواء.

وعلى هذا النحو اتجه اهتمام الباحث إلى دراسة أحوال الجاليات الأجنبية في مصر في العصر المملوكي موضحًا طبيعة الوجود الأجنبي في الديار المصرية إبان فترة الازدهار وفترة الانهيار حيث إن هؤلاء الأجانب قد قدموا إلى مصر وعاشوا فيها، وأقاموا بها علاقات قوية مع السكان الوطنيين ومع السلطات الحاكمة منذ العصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي، ولذا كان لهم أثر ملموس في المجتمع المصري سواء كان أثرًا سلبيًا أو إيجابيًا.

وقد عرف ابن منظور كلمة الأجنبي بأنه هو البعيد في القرابة وليس له معرفة بالدولة، ولا ينتمي إليها، ولا يتمتع بجنسية الدولة الأخرى[١]، كما ورد في المعجم الوسيط تعريف مشابه حيث ذكر أن الأجنبي هو الشخص الذي لا ينتمي للدولة ولا يتمتع بجنسيتها[٢]، أما باقي المعاجم الأخرى فاقتصرت في تعريفها على أن الأجنبي هو ذلك الشخص الغريب عن الدولة المضيفة[٣]، وعلى هذا النحو يكون الأجنبي هو كل عنصر غير عربي وغير مسلم وغير مصري ولذا فقد حددت جنسيات هذه الجاليات الأجنبية فمنها المسيحيون الشرقيون والغربيون والأرمن والمغول والأحباش والنوبيون.

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أنها دراسة تكاد تكون شاملة بمعنى أنها قد

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (دار المعارف، القاهرة، ب. ت)، ج٢، ص ٦٩٢.

(٢) المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨١م)، ج٢، ص ١٤٣.

(٣) ابن عبد الرحمن خليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين (تحقيق مهدى المخزومي، دار الهلال، القاهرة، ب. ت) ج٢، ص ١٤٩؛ محيى الدين يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط (القاهرة، ١٣٤٤هـ)، ص٥٠.

اشتملت على جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية، كما اهتمت الدراسة بأحوال هؤلاء الأجانب على اختلاف أصنافهم وطوائفهم فمنهم التجار والجواسيس والأسرى والرقيق والمهاجرون الذين يرغبون في الأمان والاستقرار.

ومن أهم الصعوبات التي واجهت الباحث في هذه الدراسة أن معظم الدراسات الحديثة قد اقتصرت على الحديث عن طوائف التجار الأجانب وقليل منهم تناول الحديث عن الجواسيس الأجانب والعبيد والأسرى فلم تنل دراستهم الاهتمام الكافي من قبل المؤرخين، ولذا حاولت قدر المستطاع جمع كافة المعلومات الهامة عن تلك الفئات المختلفة، كما وجدت أن معظم المصادر المملوكية المعاصرة اهتمت بالجوانب السياسية والعسكرية وقد أمكننا استخلاص المادة العلمية بالدراسة من ثنايا هذه الجوانب.

وثمة صعوبة أخرى وهي أن هذا الموضوع متسع من الناحية الزمنية والجغرافية فهو يمتد زمنيا لعدة قرون منذ الفتح الإسلامي لمصر حتى أخريات القرن الخامس عشر الميلادي ومن الناحية الجغرافية فإن تلك الجاليات الأجنبية جاءت من أصول متباينة ومما يزيد من صعوبة الدراسة طبيعة المصادر التي يتحتم على الباحث الرجوع إليها وتحليل مادتها فهي مصادر متباينة منها ما هو عربي وما هو أجنبي وتشمل الحوليات وكتب الجغرافيين والرحالة والمؤلفات التي اهتمت بالتطورات الاجتماعية وهي قليلة فضلاً عن ذلك فإن المادة العلمية متناثرة وفي بعض الجوانب نجدها قليلة نسبيًا وسوف أحاول في هذه الدراسة تحديد أبعاد موضوع الجاليات الأجنبية في الدولة المملوكية.

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول خصصت الأول منها لدراسة العوامل والظروف التي دفعت الأجانب للقدوم إلى مصر والإقامة بها منوها إلى ترتيب هذه العوامل حسب أهميتها وكذلك إلقاء الضوء على الوجود الأجنبي قبيل العصر المملوكي، ثم وضحت أهمية العوامل الداخلية كعنصر جذب للأجانب حيث كانت قوة الدولة وبسط سيطرتها ونفوذها داخليا، واستقرار الحكم الداخلي، وكذلك توفر عنصر الأمان أعطى الفرصة للأجانب للقدوم إلى مصر، وتلا ذلك استقرارًا في أحوال

الطرق التجارية البرية والبحرية في أوربا وأفريقيا وآسيا بسبب غلق الطرق التجارية القديمة، فازدهر الطريق البحري من الهند والصين إلى البحر الأحمر ومصر والشام، بالإضافة إلى ظهور قوى جديدة فضلت المشاركة مع مصر في نواحي متعددة، مع ضعف السيطرة البابوية على أوربا فأصبح الأوربيون غير قادرون على السفر برا أو بحرا بدون وساطة المماليك، كما أشرت إلى العوامل العسكرية التي كانت سببًا في قدوم الأسرى الأجانب إلى مصر، ثم اتباع سلاطين المماليك سياسة التسامح الديني والاجتماعي والتي ساهمت في هجرة العديد من المغول إليها بحثا عن الأمان والاستقرار.

وتناول الفصل الثاني موقف السلطات المملوكية من الجاليات الأجنبية موضحا حقوق وواجبات الأجانب والقواعد التي وضعتها الدولة لحمايتهم ولحماية نفسها، ثم انتقلت إلى موقف الدولة من الأجانب المقيمين في حالة شن الغارات الأوربية على السواحل المصرية ولا ننسى كذلك الحديث عن مصادر الأسرى والرقيق والجواسيس وكيفية التعامل السلطات الحاكمة مع هذه الفئات.

ثم خصصت الفصل الثالث لدراسة الحياة الاجتماعية للأجانب في مصر موضحًا أماكن تجمع وإقامة الجاليات الأجنبية من جميع الجنسيات والطوائف ثم تناولت مسألة العلاقة بين الأجانب والسلطات الحاكمة من ناحية وبين الأجانب والمصريين من ناحية أخرى وأثر الوجود الأجنبي على المجتمع المصري.

أما الفصل الرابع والأخير فقد جعلته للحديث عن أوضاع الجاليات الأجنبية وأحوالهم في ظل التدهور الذي حدث في نهاية العصر المملوكي سواء كان هذا التدهور داخليا متمثلا في اهتزاز السلطة الحاكمة، وسوء الأحوال الاقتصادية، وتدهور المدن المصرية، والثورات المتعددة، وفرض الدولة سيطرتها على التجارة، واتباعها سياسة تعسفية مع المصريين والأجانب، أو كان التدهور خارجيًا متمثلاً في الخطر البرتغالي الذي قضى على الاقتصاد المصري وساهم في التدهور السريع للدولة وذلك بسيطرة البرتغال على طريق رأس الرجاء الصالح وعلى التجارة الشرقية التي كانت سببًا في القوة السياسية والاقتصادية للدولة المملوكية مما أدى إلى حدوث

خسارة فادحة للتجارة المصرية وإلى قلة الأجانب في مصر فأصبحت فنادقهم خالية ونقص تواجدهم في المجتمع المصري بالإضافة إلى سوء معاملة السلطات الحاكمة لهم.

وأنهيت الدراسة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها وألحقت بها قائمة بالمصادر والمراجع والدوريات التي استعنت بها في إعداد هذه الدراسة.

وبعد فأنني أرى لزاما أن أهدى الشكر والعرفان بالجميل للأستاذ الدكتور / قاسم عبده قاسم الذي ساعدني في اختيار الموضوع وقدم لي التوجيهات والنصح والإرشاد حتى خرج هذا البحث بهذه الصورة التي أحسبها لائقة، كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى الدكتور/ حاتم الطحاوي، والدكتورة / زينب عبد المجيد، ولا يفوتني أن أوجه الثناء والعرفان بالجميل إلى زملائي وزميلاتي في الدراسة والبحث العلمي، وشكر خاص لكل العاملين بدار الكتب بالزقازيق لتعاونهم معي ومساندتهم، وأقدم أجمل باقات الشكر والاحترام إلى أسرتي حيث رأيت فيهم العطاء والوفاء والإخلاص فلهم منى كل حب وتقدير، وأشكر كل إنسان قد عاونني وساعدني في إخراج هذا البحث.

والله أسأل أن يجعل من هذا الجهد عطاءً نافعاً في مجال البحث العلمي،

والله الموفق والمستعان.

عرض لأهم المصادر والمراجع:

وقد استلزم إعداد هذه الدراسة الرجوع إلى العديد من الوثائق والمصادر والمراجع العربية والأجنبية.

أولا : الوثائق العربية:

من أبرز هذه الوثائق التاريخية التي اعتمد عليها البحث كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندى[٤]، وكتاب (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور) لابن عبد الظاهر[٥]، وكتاب (الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور) للمؤرخ شافع بن على[٦]، وهذه الوثائق قد أفادت البحث في معرفة الحقوق والواجبات المفروضة على الأجانب الوافدين إلى الدولة، وتحديد الضريبة التي كانت تفرض على السفن الأجنبية القادمة إلى الموانئ المصرية، وذلك من خلال المراسيم السلطانية للنواب في الثغور، وكذلك المعاهدات والاتفاقيات التجارية بين مصر والدول الأجنبية، كما أكدت هذه الوثائق حسن معاملة السلطات المملوكية للأجانب في الديار المصرية.

ثانيًا: المصادر العربية:

ويأتي على رأسها مخطوط (تاج المفرق في حلى المشرق) للرحالة البلوى المغربي[٧]، الذي أمدنا بمعلومات هامة عن وفرة أعداد الجاليات الأجنبية في مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وتنوع جنسياتهم فذكر أن منهم الأحباش واليونانيين والأوربيين والأرمن وغيرهم من الجنسيات الأخرى، ثم مخطوط (فتوح

---

(٤) أبو العباس القلقشندى، ولد فى مدينة قلقشندة بمركز طوخ بمحافظة القليوبية فى عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، واشتغل بالفقه ثم التحق بخدمة الظاهر برقوق فى ديوان الإنشا وتوفى عام ٨٢١هـ/١٤١٨م.

(٥) القاضي محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر، ولد فى عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م بالقاهرة، وتوفى بها، وكان كاتبا وشاعرا، وتولى منصب صاحب ديوان الإنشاء، وأخر لحكم الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون.

(٦) نصر الدين شافع بن على بن إسماعيل بن عساكر العسقلاني المصري ولد عام ٦٤٩ هـ/ ١٢٥٢م تولى ديوان الإنشاء حتى عمى بصره وتوفى عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م.

(٧) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٣ جغرافيا.

النصر في تاريخ ملوك مصر) لابن بهادر[٨]، وكذلك مخطوط (درة الأسلاك في دولة الأتراك) لابن حبيب[٩]، حيث ألقى الضوء على المصادر الأساسية للحصول على الأسرى وأهمها الحروب والمعارك التي دارت بين دولة المماليك والدول الأجنبية، ثم العودة بأعداد ضخمة من الأسرى الأجانب من جنسيات متعددة، بالإضافة إلى مصادر الحصول على الرقيق وذلك عن طريق بيع الأسرى في أسواق العبيد، أو تخصيص تجار من قبل السلطان لشرائه من بلاد كثيرة.

أما فيما يتعلق بالمصادر التاريخية التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، فيأتي على رأسها كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي[١٠]، الذي أفادنا في الإشارة إلى المغول الوافدين إلى مصر، وأماكن إقامتهم فيها، وعن الحياة الاجتماعية للأسرى والرقيق الأجنبي في قصور الأمراء والسلاطين، أو في بيوت العامة، ومدى تأثر المجتمع المصري بهم وتأثرهم به، وكذلك توضيح مظاهر النمو والازدهار في الدولة، ثم مظاهر الانهيار، وأثر ذلك على الوجود الأجنبي في الدولة المملوكية، كما أشار إلى موقف السلطات المملوكية من الأجانب المقيمين في حالة الغارات التي شنها القراصنة على السواحل المصرية، وكذلك كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) الذي يعد من أشهر مؤلفاته حيث تناول بالدراسة ذكر الأماكن التي أقام فيها الأجانب في مصر مثل المغول والأرمن والروم، مع تحديد وتفصيل الأماكن والتغييرات التي حدثت فيها، أضف إلى ذلك كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) للمؤرخ ابن تغرى بردى[١١]، الذي يعد كتابه على جانب كبير من الأهمية فقد تضمن تاريخ

---

(٨) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧ تاريخ.

(٩) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ

(١٠) تقي الدين أحمد بن على المقريزي، ولد بالقاهرة فى حارة برجوان عام ٧٦٦هـ/١٣٦٥م وقد عمل طويلا فى عدة مناصب حكومية مثل ديوان الإنشاء ثم قاضيا للشافعية ثم تولى إماما لجامع الحاكم ومدرسا للحديث ثم محتسب القاهرة كما عمل بالتدريس فى دمشق ثم عكف على الدرس والاشتغال بالعلم ولا سيما التاريخ وتوفى عام ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م.

(١١) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الظاهر، ولد بالقاهرة عام ٨١٢هـ/١٤١١م من أم تركية وكان والده موظفا فى البلاط المملوكي ولذا احتل مركز الصدارة واشتغل بالعلم وكتابة التاريخ.

مصر منذ الفتح الإسلامي حتى وفاته، قد جعل المؤلف كل عصر من عصور الملوك والسلاطين فصلا قائما بذاته، وذكر السنين وحوادثها، وقد أضاف هذا المصدر الكثير إلى البحث، وبخاصة فيما يتعلق بحياة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وشغفه بالجواري الأجنبيات، وكذلك الدور الاجتماعي الذي لعبته هؤلاء الجواري عند السلاطين المماليك، ويليه كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس الذي يعد أحد المصادر الإسلامية المعاصرة حيث أضاف تفصيلات واضحة للحالة المتردية في المجتمع المصري والأخطار الخارجية التي واجهت الدولة المملوكية في العصر الجركسي متمثلة في الخطر العثماني والبرتغالي والوسائل إلى اتخذتها السلطات المملوكية لمواجهة هذين الخطرين.

ثالثا : كتب الطبقات والتراجم:

ولهذه الكتب أهمية خاصة لأنها تكمل أوجه القصور في بعض المصادر التاريخية الأخرى، إذ إنها تتبع الأشخاص وتترجم لهم حياتهم العامة والخاصة، وتبرز دورهم الفعال في أوجه النشاط الإنساني والعلاقات الاجتماعية والحياة السياسية، وهي بذلك تقدم معلومات وافية وقيمة في نواحي متعددة، ومن أهم كتب التراجم التي أفادت الدراسة كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني، وكتاب (البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع) للشوكاني، وكتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) للسخاوي، وكذلك كتاب (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) لابن تغرى بردى.

رابعا : كتب الرحالة:

تعد كتب الرحالة الأجانب والعرب مصادر هامة ومفيدة للباحثين لأنها تمدنا بمعلومات قيمة أغفل عنها كثير من المؤرخين في أحيان كثيرة، وأهم هذه الكتابات كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) المعروف برحلة ابن بطوطة الذي أفاد هذه لدراسة حيث أمدنا بمزيد من التفاصيل عن القاهرة المملوكية ومميزاتها مما جعلها مركز جذب للأجانب لزيارتها والإقامة بها، كما ذكر الخانات والفنادق ووصفها والإمكانيات المتاحة بها، ومن أهم كتب الرحالة الأجانب، كتاب

(Jewish Travelers) ومؤلفه (Adler) وكذلك كتاب (Visit to holy places on Egypt , Syria , Palastine) ومؤلفه فريسكو بالدى و جوسيه وسيجولى، وهذا الكتاب قد شمل عدد من الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر إبان تلك الفترة.

خامسا: المراجع العربية والأجنبية:

بالإضافة إلى هذه المصادر مجموعة من المراجع والأبحاث العربية التي ساهمت في إعداد هذا البحث، ومن أهمها مؤلفات الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مثل كتاب (المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك)، كتاب (الحركة الصليبية)، وكتاب (العصر المماليكي في مصر والشام)، وكذلك كتاب هايد (تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى)، وكتاب شارل ديل (جمهورية البندقية جمهورية أرستقراطية)، وكتاب جاستون فييت (القاهرة مدينة الفن والتجارة)، أما المراجع الأجنبية فيأتي على رأسها كتاب (the latter crusades in the middle ages) وكذلك كتاب Doop (Les relations Egypt – Catalina et les corsairs au commencement du quinzieme siècle) بالإضافة إلى عدد من المراجع الأخرى والدوريات العربية التي أفادت البحث وقد أثبتها في ثبت المصادر والمراجع في نهاية الدراسة.